تطور الاستراتيجية الروسية تجاه إسرائيل: من عدم الاعتراف إلى التعاون العملي

آنا بورشيفسكايا

معهد واشنطن لسياسة الشرق الأدنى

يقدم هذا المقال نظرة عامة على الثلاثين عاماً الماضية من العلاقات بين روسيا وإسرائيل، ويركز بشكل أساسي على استراتيجيات الكرملين وتكتيكاته ومصالحه تجاه إسرائيل، فضلاً عن نقاط الاحتكاك بين الدولتين، تحت حكم بوريس يلتسين وخاصة في عهد فلاديمير بوتين. ويستعرض المقال أولاً نهج روسيا تجاه الشرق الأوسط وإسرائيل في تسعينيات القرن الماضي باعتباره امتداداً للسياسات الداخلية والخارجية الشاملة لروسيا. ثم ينتقل المقال إلى روسيا في عهد بوتين والعلاقات مع إسرائيل ضمن النطاق الأوسع لسياسة روسيا في الشرق الأوسط وتواصل بوتين الشخصي مع إسرائيل، مع زيادة توسع العلاقات الاقتصادية والثقافية والسياسية وغيرها. ويبحث المقال في قضايا مكافحة الإرهاب، والحرب العالمية الثانية،

والعلاقات الثقافية، والمصالح الدينية، وإعادة تأهيل ستالين والستالينية التي سعى بوتين لتحقيقها من منطلق هدف عملي لبناء النفوذ، وينظر في كيفية توافق هذه السرديات المحلية مع السياسة الخارجية للكرملين. أخيراً، يناقش المقال كيف أثر التدخل السوري على ديناميكية القوة ومصالح كل من روسيا وإسرائيل.

المقدمة

لعبت العلاقات مع موسكو دوراً مهماً لإسرائيل منذ قيام البلاد [عام 1948]. فقد دعم كل من هاري ترومان وجوزيف ستالين تأسيس الدولة اليهودية، على الرغم من الاختلاف الجوهري في دوافع الزعيمين. وبالفعل، بدا تصويت الاتحاد السوفيتي لصالح تقسيم فلسطين في 29 تشرين الثاني/نوفمبر 1947 متناقضاً تماماً مع رؤية ستالين للعالم. وفي وقت مبكر من عام 1913، كتب ستالين، الذي وصف اليهود فيما بعد بأنهم غير أوفياء، مقالة بعنوان "المسألة القومية والديمقراطية الاجتماعية" (ستالين، 1913) أدت إلى انتشار الاعتقاد السائد بأن "اليهود ليسوا أمة". وعلى الأرجح، يُعزى السبب الكامن وراء التصويت الذي جرى في عام 1947 إلى السياسة الواقعية، التي منح ستالين بموجبها الأولوية لطرد بريطانيا من الشرق الأوسط (كريمر، 2017) ورأى في تأسيس دولة إسرائيل أداة لتحقيق ذلك في وقت أطلت فيه "الحرب الباردة" برأسها في منطقة البحر المتوسط.

وبعد فترة وجيزة من التصويت، بدأ الاتحاد السوفيتي يتحوّل ضد إسرائيل، بعد أن اختار حزب "مباي" بزعامة ديفيد بن غوريون "الانحياز إلى الغرب علناً" (أهارونسون، 2018). وكان أول ما قام به الكرملين هو تعليق العلاقات مع إسرائيل لمدة 5 أشهر في 11 شباط/فبراير 1953 (يونايتد برس، 1953) ليعمد في نهاية المطاف إلى قطعها في 10 حزيران/يونيو 1967 بعد "حرب الأيام الستة". وأصبح القادة السوفيت ينظرون إلى إسرائيل على أنها دولة منبوذة ونقطة ارتكاز "الإمبريالية" الأمريكية بشكل خاص والغربية بشكل عام في الشرق الأوسط. وفي هذا السياق، أصبحت العدائية تجاه إسرائيل والغرب مبرر الاتحاد السوفيتي لتعزيز الوحدة العربية. ولم يكتفِ "جهاز الاستخبارات السوفيتية" بتدريب الجيوش العربية ودعمها فحسب، بل الجماعات الإرهابية المعادية للغرب في جميع أنحاء الشرق الأوسط أيضاً، فضلاً عن الحركات القومية والإرهابية الفلسطينية في الضفة الغربية وقطاع غزة. وتفاخر أحد الجنرالات السوفيت في عام 1971 قائلاً "إن اختطاف الطائرات هو اختراعي الخاص" (باسيبا، 2006).

السياسة الداخلية لروسيا والتوجه العام للسياسة الخارجية، وبشكل أكثر تحديداً نهجها تجاه الشرق الأوسط، شكلت علاقات موسكو مع إسرائيل خلال فترة حكم يلتسين طوال التسعينيات.

ومن جهته، سعى ميخائيل غورباتشوف، وهو آخر زعيم للاتحاد السوفيتي، إلى تحسين العلاقة مع إسرائيل، بما فيه مصلحة الكرملين. وخلص إلى أن الاتحاد السوفيتي عجز عن ترجمة موقفه في المنطقة إلى مكاسب

دبلوماسية وسياسية أكبر، وبحث عن خيارات إضافية تجاه الولايات المتحدة. وبالتالي، عمد غورباتشوف إلى توسيع نطاق الحوار الدبلوماسي مع إسرائيل وسرعان ما خفف القيود المفروضة على هجرة اليهود من الاتحاد السوفيتي إلى إسرائيل. واستأنف البلدان علاقاتهما الكاملة في تشرين الأول/أكتوبر 1991 (هابرمان، 1991)، ولكن بعد شهريْن، انهار الاتحاد السوفيتي. وخلال أشهره الأخيرة، شارك الاتحاد السوفيتي إلى جانب الولايات المتحدة كجهة راعية لمحادثات السلام في الشرق الأوسط التي بدأت في تشرين الأول/أكتوبر في مدريد، وإن كان دور موسكو في الواقع هامشياً. وبعد أن خلف الاتحاد الروسي الاتحاد السوفيتي، شهد المسار العام للعلاقات الثنائية تحسناً بوتيرة سريعة، أولاً في عهد بوريس يلتيسن في تسعينيات القرن الماضي، وحتى بصورة أكثر في عهد فلاديمير بوتين. وتقوم العلاقات بشكل أساسي على البراغماتية، وبالتالي وقد تتغلب على الخلافات والتوترات.

ويغطي هذا المقال بشكل عام السنوات الثلاثين الماضية ويقدّم نظرة شاملة على هذا التطور، ويركز على استراتيجيات روسيا ومصالحها تجاه إسرائيل.

السياسة الداخلية والخارجية لروسيا في تسعينيات القرن الماضي

إن سياسة روسيا الداخلية وتوجهاتها السياسية الخارجية العامة، وبصورة أكثر تحديداً النهج الذي اعتمدته تجاه الشرق الأوسط، هي التي شكلت علاقات موسكو مع إسرائيل خلال فترة حكم يلتسين طوال تسعينيات القرن الماضي. وبالتالي يجب فهم العلاقات الروسية - الإسرائيلية في إطار السياق العام الذي أثر فيها. وكان يلتسين وحكومته يتجهان نحو الغرب، لكن التحرر المحلي بقي محدوداً. وفي هذا الإطار، كتب أول وزير روسي للشؤون الخارجية، أندريه كوزيريف، الذي اتبع توجهاً مؤيداً للغرب بشكل عام، قائلاً: "بحلول نهاية عام 1993، أدركتُ أن فرصة تحويل روسيا جذرياً إلى ديمقراطية حديثة يقوم اقتصادها على السوق المفتوح كان من الممكن أن تفوت" (كوزيريف، 2019، صفحة 250). وفي منتصف التسعينيات، أعادت روسيا "إحياء نظام القوة الشخصية تحت ستار الشعارات الليبرالية"، كما كتبت المحللة الروسية البارزة، ليليا شيفتسوفا، ومساعد وزير الخارجية الأمريكي السابق لشؤون الديمقراطية وحقوق الإنسان والعمل، ديفيد كريمر (شيفتسوفا وكريمر، 2012). علاوةً على ذلك، لم تكن السياسة الخارجية الروسية متماسكة في السنوات الأولى، حيث دفعتها الأصوات المتضاربة بين الحكومة والقطاع الخاص (بما في ذلك قطاعا الطاقة والمصارف) في اتجاهات مختلفة. واعتمد يلتسين، تمشياً مع توجهه العام في السياسة الخارجية، نهجاً براغماتياً بشكل أساسي ولكن غير مترابط إزاء الشرق الوسط (فريدمان، 1998، صفحة 140-169). وفي حين تركزت اهتمامات يلتسين الأساسية على القضايا المحلية بدلاً من هذه المنطقة، إلّا ان الصورة الناشئة أظهرت له بعض الأولويات الأساسية في الشرق الأوسط.

إسرائيل ضمن مصالح الشرق الأوسط الأوسع نطاقاً

على الرغم من انسحاب روسيا الجزئي من المنطقة، إلّا أنها استمرت في تقدير أهمية تركيا وإيران، نتيجة لنقل أولوياتها لكي تركز على آسيا الوسطى وعبر القوقاز، وفي حقها الخاص، لأسباب تجارية وتاريخية جيوسياسية برزت قبل قيام الاتحاد السوفيتي بفترة طويلة. وفيما يتعلق بتركيا، ركزت موسكو على بناء علاقة تجارية معها. أما إيران، فشكلت سبباً للخلاف بين روسيا والغرب حول الشرق الأوسط، حتى خلال السنوات الأولى من عهد يلتسين التي اتسمت بموالاة شديدة للغرب. وعلى وجه التحديد، أرادت موسكو بيع الأسلحة للجمهورية الإسلامية، مستفيدةً من التحسن السابق للعلاقات مع الاتحاد السوفيتي الذي بدأ في حزيران/يونيو 1989 بعد وفاة آية الله الخميني. علاوةً على ذلك، وقعّت موسكو وطهران اتفاقية تعاون نووي ثنائية أولية في آب/أغسطس

1992 واتفاق لاحق في عام 1995، حيث وافقت بموجبه موسكو على بناء محطة للطاقة النووية في مدينة بوشهر على ساحل الخليج العربي في جنوب غرب إيران.

وفي ذلك الوقت، نسقت الولايات المتحدة وإسرائيل سياساتهما تجاه موسكو للحدّ من إمدادات روسيا لإيران في مجال الطاقة النووية والصواريخ والتكنولوجيا ذات الاستخدام المزدوج. ووقع نائب الرئيس الأمريكي آنذاك، آل غور، اتفاقية سرية مع رئيس الوزراء الروسي في ذلك الحين، فيكتور تشيرنوميردين، للحدّ من بيع روسيا للأسلحة التقليدية إلى إيران. ونصت الاتفاقية على ألا تفرض الولايات المتحدة عقوبات على روسيا بسبب تزويدها إيران بالأسلحة والتكنولوجيا رغم تصنيف هذه الأخيرة كدولة راعية للإرهاب مقابل إتمام روسيا جميع مبيعات العقود المبرمة بحلول 31 كانون الأول/ديسمبر 1999 وعدم سعيها للحصول على عقود أسلحة جديدة. وبسبب الضغوط الأمريكية العامة، وافق يلتسين على تقليص التعاون النووي مع إيران، ولكن المسؤولين الأمريكيين قدّروا أن "علماء روس فرديين ومعاهد روسية ساعدوا المهندسين الإيرانيين في مجالات حساسة من دورة الوقود النووي، وفي بناء مفاعل أبحاث يعمل بالماء الثقيل بقدرة 40 ميغاوات في أراك" ("لمحة نووية عامة عن إيران"، 2020).

وبرز الخليج العربي الذي يضم ممرات مائية وطرق تجارية جيواستراتيجية مهمة، كأولوية إقليمية رئيسية ثانية بالنسبة للكرملين. أما الساحة العربية الإسرائيلية فاحتلت المرتبة الثالثة، وهنا جاء دور إسرائيل التي بدأت موسكو تنظر إليها كشريك.

العلاقات الدبلوماسية والاقتصادية والثقافية

على مدى سنوات، كانت المساعدة التي قدمتها روسيا لبرنامج إيران النووي وعلاقتها بإيران و"حزب الله" وحركتي "حماس" و"الجهاد الإسلامي في فلسطين" - أي القوات الراديكالية في المنطقة - من أبرز القضايا التي اعترضت عليها إسرائيل بشدة. فهذه العلاقات أثارت مخاوف أمنية خطيرة في إسرائيل، حيث حث المسؤولون الإسرائيليون الولايات المتحدة مراراً وتكراراً على زيادة الضغط على روسيا بشأن مبيعات الأسلحة إلى إيران، وخاصة المساعدة في برنامجها النووي. وشملت النقاط الأخرى المثيرة للقلق علاقات روسيا مع صدام حسين في العراق وحافظ الأسد في سوريا. ومع ذلك، ظهرت درجة من التقارب حول العديد من القضايا المختارة. وكما كتب روبرت فريدمان، ركز الكرملين بشكل أساسي في علاقاته مع إسرائيل على المصالح الاقتصادية والثقافية والدبلوماسية - وتشمل هذه الأخيرة السياسة العامة حيث ركزت بشكل خاص على عملية السلام العربية - الإسرائيلية (فريدمان، 1998). وتطورت العلاقات على مراحل متعددة، على الرغم من استمرار التوترات والخلافات.

أولاً، تسارعت وتيرة التجارة الثنائية وازدادت بأكثر من الضعف في عام 1993 بالمقارنة مع عام 1992، وارتفعت قيمتها من 123 مليون دولار إلى 308 ملايين دولار. وواصلت ارتفاعها المطّرد سنوياً لتسجل 867 مليون دولار في عام 1995 وتخطت ما يزيد قليلاً عن 600 مليون دولار في أواخر تسعينيات القرن الماضي ("صندوق النقد الدولي"، 2021أ، 2021ب). وفيما يتعلق بتجارة روسيا في الشرق الأوسط، كانت التعاملات التجارية مع تركيا هي الوحيدة الأعلى في تلك السنوات، وبحلول نهاية التسعينيات، كانت تركيا الشريك التجاري الأكبر لروسيا في المنطقة. وتُمثل تجارة روسيا العامة مع المنطقة بأكملها (باستثناء تركيا)، التي تراوحت من 1.2 إلى 1.7 مليار دولار في هذا العقد، نقطة مرجعية أخرى ("صندوق النقد الدولي"، 2021أ، 2021ب). وقد ساهمت روسيا في عملية البيع المثيرة للجدل التي اعتزمت إسرائيل في إطارها بيع نظام رادار "فالكون" للإنذار المبكر القائم عموماً على تكنولوجيا طائرات الإنذار المبكر والتحكم ("أواكس") إلى الصين (التي توقفت

في النهاية بسبب الضغط الأمريكي) (بويسي، غير مؤرخ): استخدمت شركة "صناعات الفضاء الإسرائيلية" هيكلاً روسياً للطائرات في نظام "فالكون" (رودان، 1998، صفحة 22؛ فيشر، 1998؛ بايك وشيرمان، 2000).

وعلى الصعيد الدبلوماسي، ازداد التعاون بشكل عام، إذ قام رئيس الوزراء الإسرائيلي اسحاق رابين بزيارة تاريخية إلى موسكو في نيسان/أبريل 1994 لمناقشة عملية السلام في الشرق الأوسط، وكانت أول زيارة رسمية يقوم بها رئيس وزراء إسرائيلي إلى روسيا. وكانت عملية السلام ما تزال بقيادة أمريكية، ولكن روسيا بقيت مهتمة بلعب دور أساسي فيها، أو على الأقل تصوير نفسها كجهة فاعلة أساسية. وجاءت زيارة رابين إبعد زيارة رئيس "منظمة التحرير الفلسطينية" آنذاك، ياسر عرفات.

فرص بسط النفوذ في ظل برودة العلاقات

بحلول نهاية التسعينيات، فقدت العلاقات الروسية - الإسرائيلية دفئها السابق على خلفية جمود عملية السلام في الشرق الأوسط بقيادة الولايات المتحدة. ولكن من المفارقات أن الحكومة الإسرائيلية أعربت علناً عن دعمها الأكبر لروسيا. على سبيل المثال، اتسم موقف إسرائيل الأولي تجاه الفظائع الصربية في يوغوسلافيا السابقة وحملة "حلف الناتو" اللاحقة بالتناقض. وأشار البعض في ذلك الوقت إلى أن وزير الخارجية آنذاك أرييل شارون، كان، من جملة أمور أخرى، "مهتماً بتحسين علاقات إسرائيل الناشئة مع روسيا، حليفة صربيا، وأنه رفض التابعين له الذين حثوه على إدانة الصرب صراحةً" (غرينبرغ، 1999). وفي وقت سابق، أشار شارون أيضاً إلى أن تدخل "الناتو" من شأنه أن يولّد الإرهاب الأصولي الإسلامي في كوسوفو (أسوشيتد برس، 1999). وفي توضيح رسمي، قال شارون إنه "يدين بشدة جميع أعمال القتل أو الإصابات بالجروح أو عمليات الترحيل الموجهة ضد مدنيين أبرياء"، في وقت كانت فيه "إسرائيل تقدم المساعدات لضحايا الحرب" (البيان 157، 1999). وفي تلك الفترة تقريباً، دعمت الحكومة الإسرائيلية أيضاً منح "صندوق النقد الدولي" قروضاً لروسيا في أعقاب الأزمة المالية التي وقعت عام 1998.

إن أحد التفسيرات المحتملة للدعم الذي قدمته إسرائيل (أو عدم إدانتها) قد يكمن في الموجة الكبيرة من الهجرة اليهودية من روسيا والجمهوريات السوفيتية السابقة إلى إسرائيل (ثيودورو، 2016). فالمتحدثون باللغة الروسية الذين ناهز عددهم المليون أنشأوا رابطاً ثقافياً دائماً، وهو أمر ترك أثراً مهماً في إسرائيل بحد ذاتها، واكتسى أهمية متزايدة في السياسة الإسرائيلية. وعلى خلفية معارضة إسرائيل لحملة "حلف الناتو"، صرّح وزير الخارجية الإسرائيلي شارون لصحيفة "*واشنطن بوست*" في ربيع عام 1999 بأن "أصوات الروس ستحدد نتيجة الانتخابات [الإسرائيلية]" ("روسيا الصغرى"، 1999). وبالفعل، وعلى مستوى خفي، زوّد هذا الرابط الثقافي الدولة الروسية بفرص أكثر لبسط نفوذها. على سبيل المثال، قال رئيس الوزراء الروسي آنذاك ورئيس المخابرات السابق المتشدد والمُستعرِب الماهر، يفغيني بريماكوف، في مأدبة غداء في موسكو عام 1999 "لا أريد حقاً التدخل في سياسة إسرائيل... ولكن إذ كنت مواطناً إسرائيلياً لمنحت صوتي لنتنياهو في الانتخابات المقبلة" (هوكستادر، 1999). ولم يتوانَ نتنياهو عن تسريب هذا التعليق إلى الصحافة الإسرائيلية.

قام يفغيني بريماكوف بتحويل سياسة موسكو من موقف أكثر توازناً تجاه الصراع العربي الإسرائيلي إلى موقف أكثر ميلاً نحو الفلسطينيين والعرب.

علاوةً على ذلك، تحتل اللغة الروسية ثالث مرتبة من حيث اللغات الأم في إسرائيل، في حين يحتفظ المجتمع الناطق بالروسية، الذي يضم إسرائيليين من أصول روسية، بعلاقات مع روسيا ويتابع التطورات فيها. فغالباً ما يتابع أفراده الصحافة الصادرة باللغة الروسية، على الرغم من انقسام وجهات النظر داخل هذا المجتمع. واعتبر الكرملين هذا المجتمع كواحد فقط من بين أدوات النفوذ في إسرائيل. ويدرك الكرملين حتماً أن سيطرته في دول ما بعد الاتحاد السوفيتي تفوق بكثير سيطرته في إسرائيل، وأن الروابط الثقافية لا تحمل بالضرورة الأهمية نفسها داخل المؤسسة السياسية الإسرائيلية، ولكنه يحاول بثبات جذب المجتمع الناطق بالروسية ("رئيس الوزراء الروسي"، 2011). ومن جانبه، قال بوتين عدة مرات على مر السنين إن إسرائيل "هي عملياً دولة ناطقة بالروسية" ("إسرائيل هي 'دولة ناطقة بالروسية' "، 2019).

"عالم بريماكوف المتعدد الأقطاب"

ساهم يفغيني بريماكوف، الذي خلف أندريه كوزيريف الأكثر تأييداً للغرب في عام 1996 كوزير للخارجية ثم أصبح رئيساً للوزراء في عام 1998، في تحويل سياسة موسكو من موقف أكثر توازناً تجاه الصراع العربي الإسرائيلي إلى موقف أكثر ميلاً تجاه الفلسطينيين والعرب. وانتقد بريماكوف إسرائيل بشكل خاص إثر عملية "عناقيد الغضب" التي نفذتها في لبنان في نيسان/أبريل 1996 ("تل أبيب"، 1996؛ ووفقاً لصحيفة "*كوميرسانت*" اليومية، ساورت إسرائيل الشكوك حيال عروض الوساطة الروسية اللاحقة وفضلت الولايات المتحدة)، وفي أواخر عام 1997 ألقى بريماكوف اللوم على إسرائيل، لانهيار عملية السلام.

وعلى نطاق أوسع، اعتمد بريماكوف سياسة خارجية روسية بعيدة عن الغرب حيث رسم رؤية لعالم متعدد الأقطاب (تشير إليه أيضاً مصادر روسية "بالعالم المتعدد المراكز"). وصاغ هذه الفكرة للمرة الأولى في عام 1996 ومن ثم في عام 1998، مما أدى إلى وضع رؤية لمثلث استراتيجي يضم روسيا والصين والهند (بيرماكوف، 1996). ويقيناً، عبّر كوزيريف أيضاً عن رؤية لعالم متعدد الأقطاب منذ عام 1992 (كوزيريف، 1992)، ولكن بريماكوف صاغ الفكرة بصراحة ووضوح أكبر باعتبارها من أولويات السياسة الخارجية، وحمل نهجه من دون شك تداعيات أكبر معادية للغرب بخلاف نهج كوزيريف الذي تحدث عن شراكة مع الولايات المتحدة. وفي جوهرها، افترضت فكرة بريماكوف أن النظام العالمي بقيادة الولايات المتحدة يضع روسيا في وضع غير مؤاتٍ حيث تعجز عن الاستمرار في المنافسة بمفردها، ولكن يمكنها التنافس كجزء من مثلث يجمع روسيا والصين والهند. وبالفعل، تعين على روسيا، باعتبارها قوة عظمى، التصدي للغرب، بما في ذلك في الشرق الأوسط، وكان بريماكوف يتوق إلى عودة روسيا إلى الساحة. وفي هذا السياق، ذكر رئيس "الموساد" السابق إفرايم هاليفي أن بريماكوف قال ذات مرة لرابين بعد أن أخبره الأخير أن إسرائيل لا ترغب في وجود سوفيتي في الشرق الأوسط، قائلاً: "يجب أن تفهموا أننا لن نغادر الشرق الأوسط أبداً لأننا جزءاً منه. نحن جزء من الشرق الأوسط!". وبالفعل، أفاد هاليفي أن بريماكوف كرر هذه الجملة بعد أن تعطلت سيارتهما بين القدس وتل أبيب. وقال هاليفي إن بريماكوف كان منفعلاً لدرجة أنه ضرب بقبضته بقوة على السيارة وخرج دم [من يده]. وأشار هاليفي إلى أن فكرة وجود روسيا في المنطقة لم يكن مجرد مفهوم شيوعي، بل روسي بشكل أساسي. (ماغين وراكوف، 2022، صفحة 43).

وتحت إشراف بريماكوف، بدأت الحكومة الروسية تولي أهمية متزايدة لاستعراض مكانتها كقوة عظمى في الشرق الأوسط. وقد قام يلتسين شخصياً ببضعة رحلات إلى المنطقة - في آذار/مارس 1996 عندما شارك في قمة للسلام في الشرق الأوسط عُقدت في مصر، وفي شباط/فبراير 1999 عندما حضر تشييع جنازة الملك

حسين في الأردن. ولكنه لم يزر إسرائيل إلا في كانون الثاني/يناير 2000، بعد تنحيه عن رئاسة روسيا، بعد أسبوع من تعيين ضابط سابق معروف قليلاً في "جهاز الاستخبارات السوفيتية" يدعى فلاديمير بوتين قائماً بأعمال الرئيس ("بوريس يلتسين"، 2000).

روسيا في عهد بوتين: عودة إلى الشرق الأوسط وتركيز أكبر على إسرائيل

انتهج بوتين رؤية بريماكوف لعالم متعدد الأقطاب وعمل بشكل حازم على إعادة روسيا إلى الشرق الأوسط في إطار نهج معاد لأمريكا لا يكون فيه سوى رابح واحد (أبنر، 2017). وفيما يتعلق بإسرائيل، اتخذ بوتين في البداية موقفاً براغماتياً قائماً على السياسة الواقعية، ولكن من المفارقات، أنه كان أكثر تأييداً لإسرائيل من النهج الذي اتبعه بريماكوف نفسه قبل عدة سنوات. ومع ذلك، وفي حين لقيت هذه المقاربة قبول عدد قليل من أعضاء حكومته فقط (كاتز، 2005)، إلّا أن استراتيجية بوتين العامة تجاه المنطقة عكست رؤية بريماكوف الرامية إلى بناء علاقات مع جميع الجهات الفاعلة الرئيسية على الأرض، وتعود جذور هذه الاستراتيجية إلى العبر المستخلصة من انهيار الاتحاد السوفيتي. ويقيناً، لم يهدف بوتين إلى إعادة إحياء الاتحاد السوفيتي، ولكنه كان مصمماً على الفوز في المواجهة مع الولايات المتحدة حيث فشل الاتحاد السوفيتي. فالهزيمة في "الحرب الباردة" استمرّت تلاحق النخب الروسية، ليس لأنها أرادت عودة النظام الشيوعي، بل لأن روسيا خسرت وتغيّر النظام العالمي نتيجة لذلك - فقد كانت تسعى لتحقيق نتيجة بديلة. وبالتالي، تمحورت العبرة التي استخلصها الكرملين حول التكتيكات التي استخدمها لتحقيق أهدافه وليس إعادة النظر بالأهداف بحد ذاتها. ولكن الأمر يتعلق الآن بعوامل جيوسياسية تقليدية، وليس بالإيديولوجيا. ووفقاً لجيمس شير، يعكس النهج العام لبوتين البراغماتية من منظور "*التشيكا*" [مصطلح لوصف الوضع في الاتحاد السوفيتي حيث كانت الشرطة السرية تسيطر بقوة على جميع مجالات المجتمع]. ووفقاً لوجهة النظر الغربية، يعني مصطلح "البراغماتية" العقلانية، ولكن بالنسبة إلى مؤيد "*التشيكا*" (أي التابع لمؤسسة أمنية حكومية سوفيتية)، فهو يشير إلى حسابات باردة متهكمة للمصلحة الوطنية، ونهج نفعي للغايات والوسائل (شير، 2013).

وبالنسبة إلى إسرائيل، استُخلصت عبرة واحدة من الخطأ الاستراتيجي القائم على وضع الاتحاد السوفيتي سياسات داخلية معادية لليهود، التي أدّت إلى بروز حركة "المرفوضين" التي ارتبطت بالنخب الغربية ومارست ضغوطاً أسفرت، من جملة أمور أخرى، عن إصدار تعديل "جاكسون فانيك" النافذ الذي ضغط على الاتحاد السوفيتي بشأن سياسته المتعلقة بحقوق الإنسان. وعموماً، ساهمت جهود الحركة أيضاً في كشف الطابع الشرير الحقيقي للنظام السوفيتي، الذي لم يكن فيه تكافؤ أخلاقي بين إيديولوجيا الغرب والأيديولوجية السوفيتية. وفي الواقع، كانت موسكو تعلم سراً أن هذا النهج فاشل من الناحية الاستراتيجية (ولكن ليس بالضرورة من الناحية الأخلاقية)، حتى خلال "الحرب الباردة". وكما ورد في أرشيفات ميتروخين الشهيرة، "حتى بريجنيف كان يتذمر أحياناً بسبب عدم التناسب الواضح في حملة "جهاز الاستخبارات السوفيتية" ضد حركة "المرفوضين"، 'الصهيونية تجعلنا نبدو أغبياء' ". (أندرو وميتروخين، 2006، صفحة 143). علاوةً على ذلك، أدى قطع العلاقات الدبلوماسية مع إسرائيل إلى فقدان الكرملين النفاذ إلى المعلومات الاستخباراتية داخل إسرائيل، ليضاف إلى السيئات الأخرى المسجلة خلال "الحرب الباردة".

ورأى الكرملين بعد ذلك أنه سيحقق نتائج أفضل إذا تعاون مع اليهود. وبالفعل، يتطابق الجوهر الأساسي لهذه الفكرة مع استراتيجية بوتين الأوسع نطاقاً في الشرق الأوسط القائمة على بناء علاقات جيدة مع جميع الجهات الفاعلة الرئيسية في المنطقة - التي تكون غالباً في حالة نزاع - لتحقيق المصالح الروسية كما حددها بوتين، وجعل بلاده وسيطاً وصانع سلام. وواصل بوتين انتهاج هذه المقاربة المرنة منذ استلامه السلطة من أجل تعزيز

مكانة روسيا في المنطقة. ويمكن القول إنه حقق نجاحاً أكبر من الاتحاد السوفيتي (فريدمان، 2018، صفحة 102-115).

المرونة البراغماتية والروابط الاقتصادية

منذ بداية عهده، رسّخ بوتين وجود روسيا في الشرق الأوسط أكثر بكثير مما فعل يلتسين، وغالباً عن طريق تدخله الشخصي. ففي تشرين الأول/أكتوبر 2000، بعد فترة وجيزة من توليه منصبه، ألغى بوتين علناً الاتفاقية المبرمة في عام 1995 بين آل غور وتشيرنوميردين. وأشارت التقارير الصحفية إلى أنه من الناحية العملية، لم ينجح الاتفاق في الحدّ من مبيعات الأسلحة الروسية لإيران، على الرغم من وفاء الولايات المتحدة بتعهداتها بموجب هذه الاتفاقية. علاوةً على ذلك، انقضى الموعد النهائي في كانون الأول/ديسمبر واستمرت المبيعات الروسية لإيران، ولكن إلغاء الاتفاق علناً بعث برسالة مفادها أن بوتين أراد زيادة التعاون مع الجمهورية الإسلامية (تشيرنوميردين، 2000). وبعد فشل محادثات "كامب ديفيد الثانية" في تموز/يوليو 2000، حاولت موسكو لعب دور أكبر كوسيط، على الأقل خطابياً. وفي الشهر التالي، سافر ياسر عرفات إلى موسكو والتقى ببوتين، الذي أبلغه استعداد بلاده "للمشاركة في رعاية" اتفاق الشرق الأوسط ("فلاديمير بوتين"، 2000).

وفي نيسان/أبريل 2005، أصبح بوتين أول زعيم في الكرملين يزور إسرائيل ("زيارات إلى دولة إسرائيل"، 2005). وجاءت تلك الزيارة عندما بدأت روسيا في اعتماد سياسة خارجية أكثر عدائية عموماً في أعقاب ما يسمى بالثورات الملونة في جورجيا وأوكرانيا ودول أخرى ضمن نطاق دول ما بعد الاتحاد السوفيتي - وهي أحداث ألقى بوتين باللوم فيها على الغرب - والتي امتدت أيضاً إلى الشرق الأوسط. وفي تلك السنوات، تركّز خوف الكرملين من الثورات الملونة بشكل أساسي على دول ما بعد الاتحاد السوفيتي بدلاً من الشرق الأوسط، ولكنه لم يغفل عن "ثورة الأرز" التي شهدها لبنان. وفي إطار العلاقات المتزايدة مع إسرائيل، أعلن البلدان في أيلول/سبتمبر 2008 عن إلغاء التأشيرات على سفر المواطنين (كينون، 2008). وازدادت الاجتماعات والمحادثات الهاتفية بين المسؤولين الروس والإسرائيليين بشكل دوري، كما حافظوا على عدة قنوات تواصل مفتوحة. وفي الوقت نفسه، إن إقامة العلاقات مع إسرائيل، لم تمنع بوتين من بناء علاقات أوثق مع طهران، أو دعوة "حماس" إلى موسكو، أو عدم تصنيف "حزب الله" منظمة إرهابية. كما زار ممثلون عن "حزب الله" العاصمة الروسية في النهاية.

وبحلول عام 2010، كان بوتين قد أقام علاقات جيدة مع جميع الحكومات في الشرق الأوسط والحركات المعارضة الرئيسية. وعلى الرغم من خسارة نفوذه لفترة وجيزة بعد ثورات "الربيع العربي" - وهو حدث آخر كانت موسكو مقتنعة بأن الولايات المتحدة هي التي دبرته، إلى جانب الاحتجاجات المحلية اللاحقة التي شهدتها روسيا - إلّا أنه سرعان ما استعاد هذه الاتصالات والنفوذ. فضلاً عن ذلك، وعلى الرغم من العلاقات الجيدة التي بناها بوتين مع الجميع في المنطقة، كان من الواضح أن بوتين أقرب إلى إيران بشكل خاص وإلى القوى المعادية للولايات المتحدة في المنطقة بشكل عام. فلم يتردد في الاستفادة من أي هفوات أمريكية أو انسحاب الولايات المتحدة الشامل من المنطقة (سواء الفعلي أو المتصور). فعلى سبيل المثال، في حزيران/يونيو 2012، استغل بوتين التوترات بين إدارة أوباما وحكومة نتنياهو وزار إسرائيل للمرة الثانية، قبل تسعة أشهر من قيام أوباما بأول زيارة رئاسية له. ومن جهة رئيس الوزراء الإسرائيلي بنيامين نتنياهو فاقت عدد رحلاته إلى موسكو تلك التي قام بها إلى واشنطن خلال فترة رئاسة أوباما.

وتحسنت العلاقات الاقتصادية بين البلديْن في عهد بوتين، وتجاوزت قيمة التعاملات بينهما 3 مليارات دولار في عام 2014، وهذا رقم أعلى بقليل مما سجله التبادل التجاري بين روسيا ومصر في العام نفسه، وبقيت

التعاملات على مقربة من هذا الرقم منذ ذلك الحين. وحرص بوتين على المشاركة في تجارة التقنيات العالية في مجالات شملت تقنية النانو، كما أصبحت السياحة قطاعاً هاماً آخر. وفي الآونة الأخيرة، ناقشت إسرائيل (ولسخرية القدر إيران أيضاً) مع روسيا إمكانية الانضمام إلى منطقة تجارة حرة ضمن " الاتحاد الاقتصادي الأوراسي" الذي تهيمن عليه روسيا (أهرين، 2019). وفي الواقع، من الصعب رؤية إسرائيل تنضم إلى هذه المنطقة قريباً نظراً لحالة العلاقات بين الديمقراطيات الغربية وروسيا. بالإضافة إلى ذلك، من الصعب رؤية إيران وإسرائيل تنضمان إلى المنظمة نفسها بالنظر إلى موقف طهران من إسرائيل. ومع ذلك، فإن واقع حصول هذه النقاشات أمر مهم بحد ذاته. وأخيراً، تحسنت العلاقات العسكرية إلى حد ما. ففي أوائل عام 2009، بدأت روسيا في التعاون مع شركة "صناعات الفضاء الإسرائيلية" بما في ذلك في مجال الطائرات بدون طيار ("روسيا تؤكد"، 2009) وبحلول العام التالي، أفادت بعض التقارير أنها اشترت معدات بقيمة 100 مليون دولار. كما ذكرت صحيفة *"فيدوموستي"* اليومية أنه في أواخر عام 2015، اشترت وزارة الدفاع الروسية 10 طائرات بدون طيار إضافية ذات تصميم إسرائيلي تمّ تجميعها في روسيا (نيكولسكي، 2015). واستمر هذا التعاون حتى مع استمرار قلق إسرائيل على مر السنين من دعم روسيا لبرنامج إيران النووي وخشيت من أن تزوّد موسكو الجمهورية الإسلامية بمنظومات دفاع جوي متطورة. وبالفعل، مارست الولايات المتحدة وإسرائيل على مر السنين ضغوطاً على روسيا لوقف بيع منظومة "أس-300" إلى إيران، وفي النهاية جمدت موسكو الاتفاق (على الرغم من أنها لم تلغيه قط) مقابل تنازلات كبيرة من الغرب كمكافأة لروسيا على دعمها لفرض عقوبات على طهران (بايكر وسانغر، 2010). وفي النهاية، نُفّذ اتفاق منظومة "أس-300" بعد إبرام "خطة العمل الشاملة المشتركة" الخاصة بالبرنامج النووي الإيراني في تشرين الأول/أكتوبر 2015.

روسيا كصانع سلام

كان بوتين مصمماً على استعادة مكانة روسيا كقوة عظمى على الساحة العالمية. وفي إطار الرؤية العالمية متعددة الأقطاب، صور روسيا على أنها دولة مهمة لحل جميع القضايا العالمية الرئيسية. وضمن هذا الإطار، أدخل روسيا في "اللجنة الرباعية للشرق الأوسط " منذ إنشائها في عام 2002، والتي أعادت التذكير بـ "مؤتمر مدريد" عام 1991. ومن الصعب التخيل بأن ذكرى انفراد الولايات المتحدة بالدعوة إلى مؤتمر سلام عالمي مهم لا تكون قد لاحقت بوتين والمقربين منه (بورشفسكايا، 2021، صفحة 29-32)، وبالطبع أظهر سلوك بوتين على مر السنين أنه كان عازماً على تجنب تكرار هذا السيناريو. أما بالنسبة للقضية الإسرائيلية الفلسطينية، فقد شدد كبار المسؤولين الروس علناً في عدة مناسبات على الطابع المشترك بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي لـ "مؤتمر مدريد"، وكان آخرها في تشرين الأول/أكتوبر 2021 ("وكالة تاس الروسية للأنباء"، 2021). وتتخذ روسيا موقفاً رسمياً حازماً إزاء القضية الإسرائيلية الفلسطينية، وإزاء مدريد أيضاً ("وزارة خارجية الاتحاد الروسي"، بدون تاريخ). وتحدث كبار المسؤولين الروس مراراً وتكراراً عن أهمية القضية الإسرائيلية الفلسطينية، وحتى يومنا هذا، لا تزال البيانات الروسية الرسمية تشير إلى أن حل هذا الصراع أمر أساسي لتحقيق السلام في الشرق الأوسط ("وزارة خارجية الاتحاد الروسي"، 2020).

كان بوتين مصمماً على استعادة مكانة روسيا كقوة عظمى على الساحة العالمية. وكجزء من رؤيته العالمية متعددة الأقطاب، فقد صنف روسيا كدولة مهمة جداً لحل جميع القضايا العالمية الرئيسية.

وفقاً لبعض المصادر، كانت روسيا في عهد بوتين الدولة الوحيدة التي حاولت بانتظام تحريك قضية الشرق الأوسط. وفي هذا السياق، حافظت موسكو على علاقات وثيقة مع قادة "فتح" و"حماس"، وكذلك "حركة الجهاد الإسلامي"، الذين قاموا جميعهم بزيارات رسمية إلى موسكو في السنوات الأخيرة. وبالفعل، لا تعتبر موسكو حركة "حماس" منظمة إرهابية، وعلى الرغم من أن هذه النقطة تثير استياء إسرائيل و"السلطة الفلسطينية"، إلا أنها لم تمنع أي طرف من الدخول في حوار مع موسكو. ففي أواخر عام 2019، وصف الرئيس الفلسطيني محمود عباس روسيا بأنها "أحد الأصدقاء الرئيسيين للشعب الفلسطيني"، وهو ليس بحاجة إلى طلب الدعم منها صراحةً بما أنها "دافعت دائماً عن شعبنا ووقفت بجانبه" (بيلينكايا، 2019). وفي وقت لاحق من ذلك العام، طلب عباس أيضاً وساطة روسيا (ملحم، 2021). وخلال عملية "حارس الأسوار" في أيار/مايو 2021، عرضت موسكو نفسها الوساطة، والتي أكد بعض المحللين الروس أنها ستكون بديلاً أفضل عن تلك التي تقوم بها الولايات المتحدة (كولاجين، 2021). بالإضافة إلى ذلك، وصف بوتين في ذلك الوقت الصراع المتصاعد بأنه "يؤثر بشكل مباشر على المصالح الأمنية [لروسيا]" (فانغ، 2021).

وشمل اعتراف موسكو في نيسان/أبريل 2017 بالقدس الغربية عاصمة لإسرائيل بعض المواضيع الرئيسية من استراتيجية بوتين. أولاً، جاء هذا القرار قبل اعتراف الولايات المتحدة بالقدس عاصمة لإسرائيل. ثانياً، ألزم القرار موسكو على فعل القليل عملياً، بخلاف القرار الأمريكي، لا سيما مع بقاء السفارة الروسية في تل أبيب. وربما لم يكن هدف بوتين الفعلي يتعلق بإسرائيل بقدر ما كان بمثابة إشارة للولايات المتحدة بأنها ستضطر إلى التعامل مع روسيا حتى في هذه القضية. ثالثاً، جعل نظرة الحكومة الإسرائيلية إلى بوتين أكثر إيجابية.

وعلى الرغم من أن القضية الإسرائيلية الفلسطينية لا تحتل الأولوية في جدول أعمال أي دولة في الوقت الراهن، ومن بينها موسكو، إلا أن الكرملين أوضح باستمرار أنه سيلعب دوراً أساسياً في إطارها.

الإرهاب والحرب العالمية الثانية وسرديات أخرى

الإرهاب

اعتمد بوتين أيضاً العديد من السرديات لبناء علاقات مع إسرائيل - إلى جانب استمالة اليهود الناطقين بالروسية - واضعاً نصب عينيه بناء علاقات أكثر استدامةً. وقارن مراراً بين صراع روسيا مع التطرف الإسلامي السني وصراع إسرائيل مع الإرهاب. وربما بفضل تواصل بوتين المستمر، كانت إسرائيل إحدى الدول القليلة (وكذلك إيران لسخرية القدر) التي لم تنتقد بوتين بسبب قضائه بوحشية على الانفصاليين الشيشان. وأدانت معظم الدول الأخرى انتهاكات موسكو لحقوق الإنسان التي ساهمت في تحويل صراع بدأ أساساً كصراع انفصالي علماني إلى آخر إسلامي متطرف. وكانت إسرائيل من أوائل الدول التي عرضت تقديم الدعم لموسكو في أيلول/سبتمبر 2004 بعد أن اقتحمت مجموعة من الإرهابيين المسلحين الشيشان والإنغوش مدرسة في بيسلان، أوسيتيا الشمالية، حيث استضافت 18 طفلاً مع ذويهم في رحلة استشفاء إلى إسرائيل استمرت ثلاثة أسابيع. وفي المقابل، انتقد الكثيرون داخل روسيا، وخاصة أقارب الرهائن، محاولة الإنقاذ الفاشلة التي نفذتها الحكومة الروسية وأسفرت عن مقتل 380 رهينة، من بينهم 186 طفلاً. (استخدم بوتين لاحقاً حادثة بيسلان كمبرر لتراجع الديمقراطية في روسيا).

الحرب العالمية الثانية والروابط الثقافية

على مر السنين شدد بوتين مراراً وتكراراً - وبالغ أحياناً - على الروابط الثقافية التي تجمع بين روسيا وإسرائيل. كما ركز على بطولة "الجيش الأحمر" ضد النازية، مستذكراً أحياناً اعتراف ستالين الأولي بالدولة اليهودية ومغفلاً عن سياسات ستالين اللاحقة المعادية للسامية، ناهيك عن هوس بوتين بطمس معالم معاهدة ستالين الأساسية مع هتلر.

وفي لقائه مع الرئيس الإسرائيلي شمعون بيريز في حزيران/يونيو 2012، قال بوتين "لقد حاربنا النازية معاً - أودّ تسليط الضوء على هذه النقطة... وهذا يعني أن لدينا قيماً إنسانية مشتركة - وهذا هو الأساس الأكثر صلابةً للتفاعل"، مضيفاً "ليس من قبيل الصدفة أن الاتحاد السوفيتي كان من بين المبادرين لتأسيس دولة إسرائيل ودعم قيامها" ("الاجتماع"، 2012). وفي اليوم التالي، ألقى بوتين كلمة بمناسبة إزاحة الستار عن نصب تذكاري في نتانيا مخصص لذكرى "انتصار «الجيش الأحمر»" على "ألمانيا النازية"، جاء فيها أن روسيا "وضعت حداً" للمحرقة اليهودية من خلال إنقاذ "العالم" (ستيرن شفلر، 2012). وفي أيلول/سبتمبر 2019، صرّح بوتين أن "مواطني روسيا وإسرائيل مرتبطون بعلاقات عائلية وقرابة وصداقة. إنها شبكة فعلية، عائلة مشتركة، أنا أقول ومن دون مبالغة... إننا نعتبر إسرائيل دولة ناطقة باللغة الروسية" ("وكالة الأخبار التلغرافية اليهودية"، 2019).

وبالنسبة إلى حديث بوتين عن القيم الإنسانية، كانت نواياه مبتذلة وأنانية. فبالتالي، وفي عام 2018، دخلت اتفاقية حيز التنفيذ تنص على أن روسيا ستدفع معاشات تقاعدية بقيمة 83 مليون دولار لمواطني الاتحاد السوفيتي السابق الذين يعيشون الآن في إسرائيل ("مكافآت بوتين"، 2017) - علماً أنها لم تملك المال لتعديل المعاشات التقاعدية للمواطنين الروس لكي تتماشى مع التضخم، في حين يُظهر مبلغ المعاش التقاعدي الضئيل الذي يزيد قليلاً عن 17 دولار في الشهر تفضيلاً للشكل على المضمون ("لحظة حرجة لميدفيديف بشأن القرم"، 2016). وسيكون من غير الدقيق الافتراض أن جهوده لاستمالة الشتات الناطق باللغة الروسية مرت مرور الكرام، ولكن السياسة الواقعية البراغماتية منحت بوتين في النهاية، نفوذاً أكبر بشكل عام. وبالفعل، وصف الكثيرون نتنياهو، الذي ربما استفاد من هذه التطورات من الناحية السياسية، على أنه "مدافع رئيسي" عن الشعب الإسرائيلي الناطق بالروسية (غاليلي، 2019).

ومع ذلك، ومن المفارقات، أن المجتمع المدني الإسرائيلي - بما في ذلك المهاجرون مؤخراً، والذين غالباً ما يشار إليهم على أنهم "مهاجرو بوتين" - قاوم تعزيز العلاقات مع روسيا على مرّ السنين. فقد نظم أبناء هذا المجتمع احتجاجات بالقرب من السفارة الروسية بشأن انتهاكات موسكو لحقوق الإنسان، في حين قوبلت كل زيارة روسية رسمية تقريباً إلى إسرائيل بالتظاهرات. واعترض الشباب الإسرائيليون الناطقون بالروسية بشكل خاص على الضم غير الشرعي لشبه جزيرة القرم، وقيل لكاتب هذا البحث في إسرائيل أن ضم القرم تسبب بانقسام الناطقين باللغة الروسية. علاوةً على ذلك، ساهمت حملة نتنياهو الموالية لبوتين في تنفير هؤلاء الناخبين، لا سيما في وقت لاحق من مسيرته السياسية. ولكن كما قالت ليلي غاليلي، ربما لم تكن الحملة تستهدف المتحدثين بالروسية بل "الشعب الإسرائيلي بشكل مطلق، الذي لا يهتم بالسياسة الروسية الداخلية وتلفته رؤية قائد دولتهم ينخرط مع الكبار من أمثال ترامب وبوتين" (غاليلي، 2019). أما تظاهرات المجتمع المدني، فلا يبدو أنها قد أثرت على مسار السياسة الخارجية الإسرائيلية تجاه روسيا.

إعادة تأهيل الستالينية

سعى بوتين إلى إعادة تأهيل الستالينية، إلى جانب الاتفاق الذي وقعه ستالين مع هتلر والذي يحمل الكثير من المعاني حول أولوياته وآرائه، وتأثيره في نهجه إزاء إسرائيل (أديريت، 2021). فروسيا، وفقاً لمزحة سوفيتية قديمة، هي دولة لا يمكن التنبؤ بتاريخها. ولا تشكل روسيا في عهد بوتين استثناء، إذ شاركت في عمليات تحريف الأحداث التاريخية وقمعها. وفي السنوات العشرين الماضية، أُقيم أكثر من 100 نصب لستالين في جميع أنحاء روسيا، معظمها بعد عام 2005 (ياكوفليفا، 2018). وفي الآونة الأخيرة، وقع بوتين قانوناً في الأول من تموز/يوليو 2021، يحرّم مقارنة أهداف الاتحاد السوفيتي علناً مع أهداف ألمانيا النازية وقوى المحور الأوروبي، فضلاً عن إنكار الدور الحاسم الذي لعبه الاتحاد السوفيتي في تحرير أوروبا من النازية ("بموافقة بوتين"، 2021). وفي هذا السياق، قال وزير الخارجية الروسي سيرغي لافرورف في 30 آب/أغسطس 2021 في اجتماع لقدامى المحاربين الروس في الحرب العالمية الثانية إنه "لا يجب المس بالتاريخ"، مضيفاً أن "الهجمات" على ستالين باعتباره مرتكب الشر الرئيسي هي "هجمات على ماضينا" ("لافرورف: الهجمات"، 2021). وبالفعل، تعاقب الدولة الروسية المؤرخين الذين يمسّون بالتاريخ، مثل يوري دميتريف، الذي عمل على توثيق الإعدامات الجماعية: ففي عام 2020 حكمت المحكمة على دميتريف بالسجن ثلاثة عشر عاماً ("رويترز في موسكو"، 2020). ولا تترك عمليات إغلاق منظمة "ميموريال إنترناشونال" ومركز "ميموريال سنتر" التابع لها مؤخراً أي مجال للشك في الاتجاه الذي تسلكه روسيا. فمنظمة "ميموريال" هي منظمة الظل الروسية الأكثر احتراماً التي تعمل في مجال حقوق الإنسان وتضم عدة فروع، علماً بأن "ميموريال إنترناشونال" كانت الفرع المختص بالأرشيف. ووثقت "ميموريال" جرائم ستالين وبدأت في السنوات الأخيرة بتنظيم تجمعات عامة كما حدث في 29 تشرين الأول/أكتوبر عندما تم قراءة أسماء ضحايا القمع السياسي جهورياً، إحياءً لذكراهم. وقامت المحكمة العليا الروسية بإغلاق هذه المنظمة بتهم ملفقة تتعلق بعدم عرض شعار "عميل خارجي" بطريقة مناسبة ورسم صورة "مزيفة" للاتحاد السوفيتي تظهره بمظهر "دولة إرهابية" (إنترفاكس، 2011).

وبالفعل، لا علاقة لإعادة تأهيل بوتين للستالينية بالبحث عن فارق دقيق حقيقي يمكن أن يعزز فهم الماضي بشكل أفضل، بل بصياغة سردية مضللة تخدم غرضاً سياسياً، على الصعيديْن المحلي والدولي. فبالنسبة للكثيرين في إسرائيل، لا يوجد تناقض بين الكره التام للستالينية والامتنان على المساهمة الرئيسية في إنشاء الدولة اليهودية، ولكن بالنسبة لبوتين هذه فرصة مفيدة، إذ تسمح على سبيل المثال بالترويج للسردية بأن روسيا هي ضحية الغرب، الذي يُزعم أنه لا يمنح روسيا الفضل الكافي للدور الذي لعبه الاتحاد السوفيتي في هزيمة هتلر. وحتى إذا فهمت جميع الأطراف في النهاية التهكم الكامن وراء هذه الأفعال، فإن المظاهر مهمة.

وهكذا، في عام 2018، شارك نتنياهو في استعراض جرى في 9 أيار/مايو في موسكو لإحياء ذكرى الانتصار على النازيين - وهو الحدث الأكبر والأهم التي تشهده روسيا كل عام، ويتجاهله القادة الغربيون منذ ضم روسيا غير الشرعي لجزيرة القرم عام 2014. وفي عهد بوتين، استغل الكرملين هذا الحدث لغايات سياسية من أجل إثارة النزعة العسكرية، لدرجة أن الروس أنفسهم أطلقوا عليه تسمية *pobedobesiye* ("جنون النصر"). وأثناء حضوره الاستعراض، وضع نتنياهو شريط القديس جاورجيوس المثير للجدل، المحظور في أوكرانيا بعد ضم جزيرة القرم (روث، 2017). وفي هذا الإطار، كتب المراسل في صحيفة *"وول ستريت جورنال"* ياروسلاف تروفيموف (2018) بأنه "كان هناك القليل مما يمكن أن يفعله رئيس الوزراء الإسرائيلي بنيامين نتنياهو للتعبير عن إعجابه بالسيد بوتين، أكثر من السفر إلى موسكو للمشاركة في الاستعراض العسكري الذي شهدته الساحة الحمراء يوم الأربعاء". وجاءت زيارة نتنياهو في وقت بقيت فيه إسرائيل قلقة بشأن تغلغل إيران في سوريا، حيث أصبحت إسرائيل تعتمد إلى حد ما على روسيا وحيث اعتقد نتنياهو أن بوتين قادر على الحد من النفوذ الإيراني. ويُظهر مقال كتبه مؤخراً سفير روسيا في إسرائيل أناتولي فيكتوروف الكيفية التي يستخدم بموجبها الكرملين سرديات الحرب العالمية الثانية في علاقته مع إسرائيل لاكتساب شرعية أكبر. فقد ذكر أنه

"في إسرائيل، نجد تفاهماً متبادلاً كاملاً، وهو أمر في غاية الأهمية نظراً لكيفية بذل محاولات ساخرة لإعادة كتابة تاريخ الحرب أو تشويهه في بعض الدول... [مع] اعتماد موقف تكفيري تجاه ذكرى الجنود-المحررين السوفيت" (فيكتوروف، 2021). وكرر لافرورف هذه النقطة في منشور مشترك في الذكرى الثلاثين للعلاقات الروسية الإسرائيلية، فكتب أن "الرفض المطلق للمحاولات والتحريفات التاريخية... والنتائج القانونية الدولية للحرب العالمية الثانية المعترف بها عموماً هي عوامل لطالما جمعت روسيا وإسرائيل (ماغين وراكوف، صفحة 15).

ومن المفارقات أن ستالين نفسه لم يُقِم احتفالات خاصة بالحرب العالمية الثانية. فقد كان يهدف إلى طمس صدمات الحرب لكي ينساها الناس - ويُعزى ذلك إلى حد كبير لأنه لعب دوراً رئيسياً في إحداث هذه الصدمات من خلال الأكاذيب وسوء الإدارة وعدم الاكتراث مطلقاً لحياة شعبه. ولم تبدأ القيادة السوفيتية بالاحتفالات إلا في عهد ليونيد بريجنيف، حيث استغلها للحفاظ على تماسك البلاد وإضفاء طابع الشرعية على الحكم السوفيتي في وقت الركود. بدوره، استخدم بوتين، على غرار بريجنيف، هذه السرديات على الصعيدين المحلي وفيما يتعلق بإسرائيل. ولتوسيع هذه الفجوة بشكل أكبر، كان الحنين إلى الحقبة السوفيتية إحدى الركائز الأساسية لطريقة صياغة بوتين لفكرة روسيا الوطنية. وكان ذلك جزءاً من رؤيته الموحدة للأمن والعسكرة، على الصعيدين المحلي والدولي (بورشفسكايا، 2020). وبرزت هذه الرؤية كرد فعل إزاء فترة تسعينيات القرن الماضي، وجمعت مزيجاً من الوطنية المتشددة والمناهضة للغرب، إلى جانب الحنين إلى الاتحاد السوفيتي والعصبية الدينية الأرثوذكسية.

الكنيسة الأرثوذكسية

لطالما كانت القدس مهمة بالنسبة للكنيسة الأرثوذكسية الروسية، لكل من القيصرية عموماً ولروسيا الإمبرالية التي قامت خلال القرن التاسع عشر على وجه الخصوص، عندما مارست الكنيسة نفوذها على المجتمعات الأرثوذكسية اليونانية والأرمنية والعربية في الإمبراطورية العثمانية. وقامت الكنيسة بتمويل المدارس والكنائس والفنادق في فلسطين وسوريا. وفي عهد بوتين، حاولت الكنيسة الأرثوذكسية الروسية إحياء الفكرة، إلى جانب المفاهيم التاريخية الأوسع نطاقاً الخاصة بروسيا باعتبارها "روما الثالثة"، بما لها من دور خاص فيما يتعلق بارتباطها بالسياسة الخارجية للدولة الخاصة بالتوسع في الشرق الأوسط. وفي هذا السياق، قدّمت الكنيسة نفسها على أنها قوة جامعة لكافة المسيحيين في المنطقة والركيزة الأساسية للاستقرار من خلال حمايتها للمجتمعات المسيحية. وكان ذلك أحد الأسباب التي جعلت الكنيسة والكرملين يسعيان إلى إقامة علاقات مع إسرائيل. ولا بدّ من الإشارة هنا إلى أن بدء إسرائيل بنقل كنيسة "ألكسندر كورتيارد" في مدينة القدس القديمة إلى الكنيسة الأرثوذكسية الروسية في كانون الثاني/يناير 2020 ("إسرائيل تبدأ"، 2020)، والاتهامات التي أطلقها لافروف بأن الولايات المتحدة تضع نصب عينيها "هدف" كسر "وحدة المذهب الأرثوذكسي في العالم"، يجب أن ينظر إليهما في هذا السياق ("لافروف: لإخراج الولايات المتحدة"، 2021). ويقيناً، أن العملية القضائية المحددة الخاصة بكنيسة "ألكسندر كورتيارد" معقدة وتشمل خلافاً قانونياً قائماً منذ فترة طويلة يعود تاريخه إلى الثورة الروسية عام 1917، لكن هذه ليست النقطة الرئيسية. (تجدر الإشارة إلى أن بوتين نفسه لم يكن عميلاً فقط في "جهاز الاستخبارات الروسية" ولكنه محام غير ممارس أيضاً). والمشكلة الأساسية هي أنه وفقاً للتصور المشوّه للكرملين، يسعى الغرب إلى إضعاف روسيا وتقسيمها - ليس من خلال "مهاجمة" ستالين وتاريخ روسيا في الحرب العالمية الثانية فحسب، بل من خلال تقسيم "الوحدة الأرثوذكسية" أيضاً، [لذلك] تقوم روسيا بترسيخ مكانتها - بما في ذلك داخل إسرائيل. ولا تشير تسمية "كورتيارد" إلى أي ألكسندر، بل إلى القديس ألكسندر نيفسكي، شفيع الجيش الروسي. وبالفعل، أعادت روسيا خلال الحقبة السوفيتية وعهد بوتين إحياء وسام ألكسندر نيفسكي الذي يعتبر أحد أعلى الجوائز رتبة في الخدمة السياسية أو العسكرية في روسيا القيصرية.

إن هذه السرديات التي تزعم أن الغرب يحاول إضعاف روسيا هي بمثابة صرخة حاشدة لتوحيد المجتمع الروسي وجعل مواطنيه ينحون خلافاتهم الداخلية جانباً للتصدي لتهديد مشترك متصور أكبر حجماً، مما يعزز بالتالي قبضة بوتين على السلطة. والواقع هو أن العلاقات بين الكنيسة والدولة في روسيا السوفيتية وعنصر الدين في السياسة الخارجية لروسيا، عميق وواسع النطاق. وبالطبع فإن مناقشة كاملة لهذا الموضوع هي خارج نطاق هذا المقال، ولكن باختصار، برز تحوّل للمسيحانية في روسيا ما بعد الاتحاد السوفيتي مع انهيار الشيوعية. وتاريخياً، اكتست السياسة الخارجية الروسية وخاصة الأمنية منها بعداً كنائسياً، كما كان عليه الحال مع سياسة روسيا ما بعد الاتحاد السوفيتي، وخاصة في عهد بوتين، وهو جزء من عملية عسكرة وعي الشعب الروسي كأداة للحملة بقيادة الدولة. وعلى الرغم من أن المحللين أكدوا على مر السنين أن روسيا برئاسة بوتين لا تتبع إيديولوجيا محددة، إلا أن هذه [التفسيرات] كانت قراءات سطحية للواقع. فقد قدّم بوتين إيديولوجيا - ترتبط بالحكم الأبوي وحب الوطن استناداً إلى جاذبية ماضٍ مجيد ورفض الليبرالية (بورشفسكايا، 2021، صفحة 44). ويلعب الدين دوراً مباشراً في هذه السردية، في حين أن الكنيسة نفسها تحافظ أيضاً على علاقات مع الدولة. وكما ذكر ديما أدامسكي في كتابه حول كيفية نجاح الكنيسة في اختراق المجمع العسكري-الصناعي الروسي، فإن تغلغل الإيمان الأرثوذكسي الروسي في السياسة كان كبيراً وعميقاً ومستمراً، وسيبقى على الأرجح بعد رحيل بوتين، في حين أن السرديات المتعلقة بالخضوع والولاء والواجب والتضحية أصبحت متداخلة مع الإيمان (أدامسكي، 2019). ونتيجةً لذلك، فإن إسرائيل، مهد المسيحية، ستحظى دائماً بمكانة مهمة بشكل خاص ضمن مصالح الدولة الروسية حيث تستمر موسكو في القيام بمهمتها المسيحانية المتمثلة بكونها الحامي والمنقذ، وهي مهمة تتخطى حدود الدول أيضاً.

أدّى تدخل بوتين في سوريا عام 2015 إلى إقتراب روسيا من أعتاب إسرائيل، وهي حقيقة لم يكن أمام إسرائيل خيار سوى مواجهتها، لا سيما في سياق الازدواجية الغربية تجاه الأزمة.

التدخل في سوريا

ساهم تدخل بوتين في سوريا عام 2015 في تواجد روسيا على حدود إسرائيل التي اضطرت إلى مواجهة هذا الواقع، لا سيما في سياق تباين الآراء الغربية إزاء الأزمة. وبالفعل، سرعان ما أصبح واضحاً أن روسيا باقية في سوريا لفترة طويلة وقد تحد بالتالي من حرية تصرف إسرائيل في ضرب أهداف مرتبطة بإيران داخل سوريا. وهكذا، ازداد التواصل بين الشخصيات الروسية والإسرائيلية، من أعلى المراتب إلى أدناها. ووضع البلدان أيضاً آلية تنسيق وفض النزاع لتجنب الصدامات. وأصبحت الحكومة الإسرائيلية تنظر إلى روسيا كدولة قادرة على احتواء إيران و"حزب الله" في سوريا، وهو تصوّر شجّعته موسكو بشدة. علاوةً على ذلك، وعلى غرار دول أخرى في المنطقة، اعتبرت إسرائيل روسيا بمثابة قناة تواصل مع نظام الأسد، وأُضيف هذا السبب إلى دوافع استمالة موسكو. بالإضافة إلى ذلك، زعم بعض المسؤولين الإسرائيليين سراً أن بوتين لديه "نقطة حساسة" تجاه اليهود وإسرائيل، مشيرين إلى أنهم شعروا بالاطمئنان عندما منحت موسكو إسرائيل حرية التصرف.

ولم تقيّد موسكو بشكل مباشر حرية إسرائيل في التصرف عسكرياً، وحتى تاريخ كتابة هذه السطور، حافظ البلدان على التنسيق بينهما. ومع ذلك، سلّط عدد من العراقيل الضوء على هشاشة هذا الوضع، على الرغم من

أن المسؤولين الإسرائيليين قالوا على مر السنين إنهم لا يطلبون إذناً من روسيا لشن غاراتهم الجوية. ومنذ آذار/مارس 2017، "استدعت" موسكو السفير الإسرائيلي في روسيا غاري كورين و"طلبت" إيضاحاً بشأن ضربة شنتها إسرائيل في سوريا، مما يؤكد أن موسكو تفضل التعامل مع شركائها على أنهم تابعون لها وليسوا متساوين معها ("طاقم تايمز أوف إسرائيل" و "وكالات تايمز أوف إسرائيل"، 2017).

ومن المؤكد أن التوترات بين روسيا وإسرائيل استمرت على مستوى أعمق مما أشارت إليه التصريحات الرسمية على مر السنين. وبقيت موسكو غير راضية من تأييد إسرائيل لوجود أمريكي في شمال سوريا من أجل دعم الأكراد السوريين. فقد حدّ الوجود الأمريكي من الخيارات الإيرانية في السيطرة على الحدود السورية - التركية وأعاد هذا الوضع مجدداً تسليط الضوء ضمنياً على ميل موسكو نحو إيران. وبالطبع أرادت روسيا ببساطة خروج الولايات المتحدة من سوريا أيضاً. أما إسرائيل، فرغم قلقها من الوجود الروسي في سوريا على مر السنين، إلّا أنها أبقت آمالها معلقة على إقدام روسيا على الحدّ من النفوذ الإيراني في سوريا، وهي آمال لم تتحقق على مر السنوات.

ولم تتخذ موسكو أي إجراء ذي مغزى لكبح إيران و"حزب الله"، في حين أن انتهاك سلسلة من قرارات وقف إطلاق النار تحت أنظار روسيا كان ينبغي أن يؤكد عدم قدرة هذه الأخيرة وعدم رغبتها في صدّ إيران في سوريا. علاوةً على ذلك، اندلعت أزمة خطيرة في أيلول/سبتمبر 2018، بعد أن أسقط نظام الأسد عن طريق الخطأ طائرة استطلاع روسية، مما أسفر عن مقتل 15 شخصاً كانوا على متنها، وهو الحادث الذي ألقت موسكو باللوم فيه على إسرائيل. ومن المؤكد أن انتقادات وزارة الدفاع الروسية كانت أقسى بكثير على ما يبدو، في حين حرصت الصحافة الإسرائيلية على التشديد على أن بوتين شخصياً لم يُلقِ اللوم على إسرائيل، إذ وصف الحادثة بأنها "سلسلة من الظروف العرضية المأساوية". غير أن وزارة الدفاع [الروسية] ألقت باللوم على إسرائيل مباشرة، زاعمة أنها استخدمت طائرة مدنية "كدرع" ضد الدفاعات الجوية السورية. ودفع ذلك الوضع بالبعض إلى القول بأن وزارة الدفاع الروسية كانت معادية لإسرائيل أكثر من بوتين نفسه.

وفي سياق هذه الحادثة، برزت مسألة معاداة الروس التاريخية للسامية، وموقف بوتين نفسه حول هذه القضية بالمقارنة مع أعضاء الحكومة الروسية اليمينيين المتطرفين والقوميين المتشددين. ويقيناً، قد تميل وزارة الدفاع الروسية إلى أن تكون أكثر معاداة لإسرائيل. ومع ذلك، زادت هذه الاختلافات من ضبابية الوضع بدلاً من إيضاحه لأنه تعذر تحديد ما إذا كانت ردود الفعل هذه حقيقية أو مجرد استعراض. وكان على وزارة الدفاع الروسية أن تدافع عن نفسها أمام بوتين، وربما كانت رغبتها في إلقاء اللوم على إسرائيل نابعة عن إحراجها البسيط أمام الرئيس، وليس عن تغيير فعلي في موقفها أو سياستها. ومن جهته، شدّد بوتين، بغض النظر عن مشاعره تجاه اليهود، وإن بطريقة ألطف من وزارة الدفاع، على أن الهجوم الإسرائيلي السابق انتهك سيادة سوريا، بالإضافة إلى الاتفاقات الروسية الإسرائيلية بشأن تجنب الصدامات. وقال بوتين أيضاً إن على نتنياهو "عدم السماح بحصول أمور مماثلة في المستقبل" ("وكالات تايمز أوف إسرائيل" و "طاقم تايمز أوف إسرائيل"، 2018). وعموماً، فإن رده كشف في النهاية عن النهج البراغماتي الذي يعتمده تجاه إسرائيل. وفي الوقت نفسه، اجتاحت وسائل الإعلام الحكومية الروسية موجة من التعليقات المعادية للسامية عبر الإنترنت ("على الويب"، 2018).

وفي نهاية المطاف، لم ترغب روسيا أو إسرائيل وقوع أزمة ثنائية كاملة، ولكن الحادثة أوضحت مدى السرعة التي قد تسوء بها العلاقات. وعندما ساءت، صوتت إسرائيل لصالح العديد من قرارات الأمم المتحدة التي تدين ضم شبه جزيرة القرم ("وكالة الأخبار التلغرافية اليهودية" و "ليبشيتز"، 2018)، بخلاف رد فعلها الأولي في عام 2014 حين بقيت محايدة ظاهرياً. ومع ذلك، حافظت الحكومة الإسرائيلية على أمل ساذج في أن تعمل

روسيا على ردع إيران في سوريا. وبالتالي، في آذار/مارس 2019، على سبيل المثال، بعد أن فشل وقف إطلاق النار في الجنوب في تلبية أي من المصالح الأمنية لإسرائيل، أعلن نتنياهو لمجلس وزرائه، "اتفقتُ أنا والرئيس بوتين أيضاً على هدف مشترك وهو انسحاب القوات الأجنبية التي وصلت إلى سوريا بعد اندلاع الحرب الأهلية". وعلى مر السنين، تبددت على ما يبدو بعض آمال إسرائيل بأن تحد روسيا من نفوذ الوكالات المدعومة من إيران في سوريا، إلا أن هذه الآمال لم تزل تماماً، على الرغم من الأدلة التي تؤكد عكس ذلك. وفي كانون الأول/ديسمبر 2021، قال مستشار الأمن القومي الإسرائيلي السابق مائير بن شبات "نحن نتشارك رؤية واحدة مع الروس، تتخطى ما يتمّ الكشف عنه علناً... فالروس يسعون إلى تحقيق الاستقرار في المنطقة، ولا سيما في سوريا. أعتقد أنهم سيوافقون على أن إيران هي القوة التي تزعزع هذا الاستقرار" ("كوبوفيتش"، 2021).

ومن جانبهم، أدان كبار المسؤولين الروس، مثل السفير الروسي لدى الأمم المتحدة فاسيلي نيبينزيا وسفير روسيا في إسرائيل أناتولي فيكتوروف، بين الحين والآخر الأنشطة الإسرائيلية باعتبارها "تزعزع الاستقرار" في سوريا والشرق الأوسط في السنوات التالية، ولكنهم رددوا هذا الخطاب بشكل خاص مع تغيير القيادة الإسرائيلية بعد أن خسر نتنياهو الانتخابات أمام نفتالي بينيت. وبعد ذلك، في تموز/يوليو 2021، أصدرت كل من موسكو وطهران وأنقرة بياناً ثلاثياً مشتركاً أكدت فيه "التزامها الكبير بسيادة [سوريا]" و"أدانت استمرار الهجمات العسكرية الإسرائيلية في سوريا التي تنتهك القانون الدولي والقانون الدولي الإنساني، وسيادة سوريا والدول المجاورة، وتعرّض استقرار وأمن المنطقة للخطر، ودعت إلى وقفها" ("روسيا، إيران، تركيا"، 2021). وفي الشهر نفسه، أفادت بعض التقارير أن العميد البحري فاديم كوليت، رئيس مركز المصالحة العسكرية الروسية في سوريا (إيغوزي، 2021أ)، قال إن القوات الروسية ساعدت سوريا في اعتراض أربعة صواريخ أطلقتها طائرات إسرائيلية من طراز "أف 16" ("سوريا تسقط صواريخ"، 2021).

وفي هذا السياق، بدت القيادة الإسرائيلية قلقة إزاء تغيير روسيا لسياستها تجاه إسرائيل في سوريا. وذكرت تقارير صحفية صدرت في صيف 2021 أن روسيا وضعت حداً لخط فض النزاع وربطت هذا التغيير برحيل نتنياهو (إيغوزي، 2021ب). ولكن بدا أن التقارير مبالغ فيها (كاسنيت، 2021)، إذ من الأرجح أن موسكو انخرطت في مراسلات تكتيكية لاختبار الحكومة الإسرائيلية الجديدة. وفي تشرين الأول/أكتوبر، عندما التقى بينيت مع بوتين، أعاد التأكيد على أن البلديْن سيواصلان تطبيق آلية فض النزاع. ولفت وزير الإسكان الإسرائيلي زئيف إلكين الذي رافق بينيت كمترجم ومستشار في بيان، قائلاً "تقرر إبقاء السياسات تجاه روسيا سارية (فيما يتعلق بالضربات الجوية في الأراضي السورية). وأضاف أن المحادثات شملت ضمان استمرارية العلاقات الثنائية مع روسيا بعد أن حل بينيت محل نتنياهو في منصب رئيس الوزراء الإسرائيلي ("طاقم تايمز أوف إسرائيل"، 2021). وفي وقت لاحق، قال محللون عسكريون إسرائيليون على القناة 12 و 13 أنه بينما تظل آلية التنسيق قائمة، طلب بوتين أيضاً إنذارات مسبقة إضافية بشأن الضربات.

تُظهر سياسة موسكو في الثلاثين عاماً الماضية، ربما باستثناء السنوات المبكرة ليلتسين، تفضيلاً للبراغماتية، حيث تفهم موسكو - وليس الغرب - هذا المصطلح، وهكذا تبني نفوذاً عملياً في هذا السياق.

الخاتمة وتوصيات في مجال السياسة العامة

خلال السنوات الثلاثين الماضية، نضجت العلاقات الروسية الإسرائيلية إلى حد كبير على الرغم من استمرار التوترات والخلافات. وعندما التقى رئيس الوزراء بينيت مع بوتين في 22 تشرين الأول/أكتوبر 2021، لم يتطرق إلى حرية تصرف إسرائيل في سوريا فحسب، ولكن أيضاً إلى أساس العلاقات الثنائية. وفي هذا الصدد قال بينيت "أود أن أخبرك نيابة عن بلدنا بكامله، وشعبنا بكامله: نحن نعتبركم صديقاً مقرباً جداً وحقيقياً لدولة إسرائيل، والشعب اليهودي"، وسلّط الضوء مجدداً على دور "الجيش الأحمر" في محاربة النازية ("الاجتماع برئيس الوزراء الإسرائيلي"، 2021). ولا تزال القيادة الإسرائيلية تعتبر أن إقامة علاقات جيدة مع روسيا أمر مهم، كما تفعل موسكو، ولكن الدافع الذي يحفز الكرملين لا يقتصر فقط على الصداقة الحقيقية.

وتُظهر السياسة التي انتهجتها موسكو في الثلاثين عاماً الماضية، ربما باستثناء السنوات الأولى من عهد يلتسين، تفضيلاً للبراغماتية، وفقاً لفهم موسكو - وليس الغرب - للمصطلح، وفي هذا السياق، بناء نفوذ براغماتي. وبالفعل، هذا أيضاً هو هدف الكرملين في ظل سعيه إلى تعزيز مكانة روسيا في الشرق الأوسط كوسيط قادر على التواصل مع الأطراف كافة ويشكّل ثقلاً موازناً للغرب، حتى في الحالات الاستثنائية التي تكون فيها موسكو مفيدة لإسرائيل. (1) وبالطبع، لا تسعى موسكو إلى أزمة ثنائية مع إسرائيل التي تشكل ديمقراطية قوية ومتقدمة موالية للغرب، والتي وتعتبرها موسكو دولة حيوية من الناحية الاستراتيجية في المنطقة. ولكن هذا بالتحديد ما يجعل من إسرائيل ضعيفة أمام جهود موسكو العامة لإفساد وإضعاف المؤسسات والممارسات الديمقراطية في جميع أنحاء العالم ("طاقم تايمز أوف إسرائيل"، 2018). فقضية نعمة يسسخار، المواطنة الأمريكية الإسرائيلية التي تبلغ من العمر 26 عاماً، والتي احتجزتها السلطات الروسية في عام 2019 بتهم ملفقة واشترطت موسكو مقايضتها بمتسلل مجرم مزعوم، تُعتبر خير مثال على نظرة موسكو إلى العلاقات الدولية (إيغلاش، 2019). وصحيح أن تعزيز النفوذ الروسي لن يوفر الاستقرار أو يحسن الأمن، ولكن خلاصة القول هي أن روسيا اليوم ترى الشرق الأوسط ميداناً رئيسياً للتنافس مع الولايات المتحدة بشكل خاص والغرب بشكل عام، وهذا من المرجح أن يمثل تحدياً أكبر لإسرائيل في السنوات المقبلة. علاوة على ذلك، كان الشرق الأوسط وسيبقى دائماً محط اهتمام القادة الروس، سواء في إطار المنافسة مع الغرب أو خارجها.

وفي الشرق الأوسط، يميل بوتين، بخلاف القادة السوفيت، نحو البراغماتية ويدرك حدوده، وقد أظهر نهجه إزاء المنطقة أن المرونة التي يتمتع بها فاقت توقعات الكثير من المعلقين. فهو يعلم أن القادة الإسرائيليين لن يخاطروا بتدهور العلاقات مع واشنطن لمجرد إرضاء موسكو. ومع ذلك، لا تشكل هذه المسألة مصدر القلق الرئيسي. فقد أظهر بوتين أنه ملتزم بتقويض المصالح الموالية للغرب - وبالفعل، اعتقد الكثيرون أن روسيا ستغرق في التجاوزات في سوريا، ولكن العكس كان صحيحاً، إذ حقق بوتين بدلاً من ذلك الكثير من الأهداف الرئيسية دون تكبّد تكاليف باهظة. وفي غضون ذلك، درس الغرب في السنوات القليلة الماضية الانسحاب من الشرق الأوسط، كما أن إدارة بايدن تعتبر الصين هدفاً رئيسياً للسياسة الخارجية أكثر من روسيا، بل إنها عززت وضع روسيا من خلال رفع العقوبات عنها والسماح لها ببناء خط أنابيب "نورد ستريم 2". ولكن كارثة الانسحاب الأمريكي من أفغانستان أضعفت الولايات المتحدة والغرب بنظر الكرملين، الذي يمارس الآن ضغوطاً بشكل علني لإجراء مراجعة شاملة للنظام العالمي ما بعد "الحرب الباردة". وستستمر المنافسة بين القوى العظمى في الشرق الأوسط، على الأقل فيما يتعلق بروسيا (والصين)، في حين أن الالتزام الأمريكي بخوض هذه المنافسة في الشرق الأوسط على وجه التحديد يبقى متناقضاً في أفضل الأحوال. ومن المستبعد أيضاً حدوث شرخ بين روسيا والصين في أي وقت قريب، على الرغم من التحليلات على مّر السنين التي رجحت أن العلاقة بينهما ليست سوى علاقة زواج مصلحة تكتيكي. وتعود الشراكة الاستراتيجية لروسيا إلى ثلاثة عقود، ولا يلزم أن تكون تحالفاً رسمياً كاملاً لإثبات أن موسكو وبكين ما زالتا ملتزمتين بتقويض النظام العالمي الذي تقوده الولايات المتحدة، وإيجاد وسائل للتعاون، وإقامة مجالات نفوذ.

وعند النظر إلى المستقبل، من المفترض أن تستمر التوترات في العلاقات الروسية الإسرائيلية، وكذلك التعاون، حيث من المرجح أن يستمر كلا الجانبين بالتمسك بواقع أن هذا التعاون، على الرغم من صعوبته في بعض الأحيان، هو في مصلحتهما. أما بالنسبة للصراع الإسرائيلي الفلسطيني، فمن غير المرجح أن ترى إسرائيل بالضرورة روسيا كوسيط أفضل من الولايات المتحدة، خاصة إذا واصلت موسكو توسيع نفوذها على "السلطة الفلسطينية"، وهو الأمر الذي رحبت به الأخيرة على مر السنين. ومع ذلك، ستحافظ روسيا أيضاً على دورها الأساسي في المحادثات. وفيما يخص علاقة روسيا بإيران، فمن المرجح أن تستمر إسرائيل في الأمل في أن تحد روسيا من نفوذ الميليشيات المدعومة من إيران في سوريا. ويبدو أن إسرائيل لا تزال ملتزمة بتفضيل الوجود الروسي على الإيراني في سوريا، بدلاً من رؤية الدولتين مجتمعتين كوحدة استراتيجية واحدة.

ومع ذلك، فقد أظهرت موسكو مراراً وتكراراً أنه في حين يسعى الغرب إلى استباق الأمور وإيجاد حلول، إلّا أنها تكتفي بنزاع لم يتم حله، سواء في سوريا أو خارجها، خاصة إذا ترتب على ذلك حصولها على مكانة وفوائد أخرى مرتبطة بالقوة المتصورة التي يبدو أنها تعمل على حل نزاع مستعصي على الحل. وتوشك سوريا من جانبها على التحول إلى صراع مجمّد ستديره روسيا، بدلاً من أن تسعى إلى حله. وخلال قيامها بذلك، ستزيد تدريجياً من نفوذها في الشرق الأوسط، حيث تكون سوريا نقطة مركزية أساسية تستعرض من خلالها قوتها. وفي حال اندلاع صراع كبير بين إسرائيل وإيران أو الوكالات المدعومة منها، فمن المرجح أن تواصل موسكو تصوير نفسها على أنها الوسيط الوحيد الذي يتمتع بقنوات تواصل مع جميع الأطراف. ولن تضمن هذه المكانة لروسيا مقعداً على طاولة الحوار وتعاون الجميع فحسب، حتى لو كان على مضض، بل ستمنحها أيضاً المكاسب، وفقاً لتبلور الأحداث، خاصة في غياب انخراط أمريكي بشكل مستدام ومركّز.

وفي سياق المنافسة المتنامية بين القوى العظمى، جمعت بين الولايات المتحدة وإسرائيل روابط عميقة ودائمة لمدة سبعة عقود، ويتعين الآن على الدولتين البحث عن أساليب لتعزيز التحالف بينهما على أساس القيم المشتركة والمصالح المحددة بوضوح، وخاصة في الوقت الذي تغير فيه الجدال السياسي في الولايات المتحدة، مقارنة بالعقود السابقة. فلطالما اتفق الحزبان الجمهوري والديمقراطي على الوقوف إلى جانب إسرائيل، ولكن هذه الديناميكية تتغير، وهو أمر مثير للقلق.

ولا يجب أن تكون زيادة التركيز على الولايات المتحدة من منطلق نهج لا تنتفع منه إسرائيل، ولكن على القادة الإسرائيليين الإقرار أيضاً بحدود الوساطة الروسية وقدرة الكرملين - أو مصلحته - على التصدي حقاً للنفوذ الإيراني. وفي هذا السياق، بينما يقترب الرئيس السوري الأسد من إعادة الأمور إلى طبيعتها مع القادة العرب الذين نبذوه خلال العقد الماضي (روغين، 2021)، على القيادة الإسرائيلية ألا تتسرع على الأقل في حذو حذوهم. فقد تبدو فكرة تقرّب الأسد من العرب، ولا سيما دول الخليج الغنية، بأنها ستبعده عن طهران وقد تبدو مكيافيلية نظرياً، ولكن من غير المرجح أن تنجح في الواقع مثل المحاولات العقيمة لدول الخليج السابقة على سبيل المثال لإبعاد روسيا عن إيران من خلال عرض استثمارات عليها. فالأسد لا يدين ببقائه في السلطة لموسكو فحسب بل لطهران أيضاً التي تنتشر تفرعاتها النافذة في أنحاء سوريا بحيث يصعب سحبها في حال تمويل الخليج عمليات إعادة الإعمار. وفي هذا السياق، إن النقاشات الجارية بشأن مدّ خط أنابيب غاز من الأردن ومصر إلى لبنان عبر سوريا (روز، 2021) لن تحدّ أيضاً على الأرجح من النفوذ الإيراني، بل ستكون أداة لتطبيع أحد اسوأ الأنظمة الديكتاتورية في العالم. على إسرائيل، وهي دولة حرة، النظر في هذه النقطة عند تفكير حكومتها في التطبيع مع أسوأ طاغية في المنطقة.

ومن غير المرجح أن يؤدي الوجود الروسي القوي في سوريا إلى تقييد إيران بطريقة مجدية. فكل ما سيفعله ببساطة هو منح نفوذها مظهراً مختلفاً وربما أقل علنيةً. كما أن المساعدة الروسية في القضايا الأخرى ليست

بالضرورة مفيدة للغير. ففي نهاية المطاف، تسعى موسكو إلى امتلاك النفوذ لتعزيز مكانتها بدلاً من تحمّل مسؤولية القيادة الحقيقية بالفعل. وغالباً ما تكون الشراكات مع الحكومات المستبدة ضرورية، لكن هذه العلاقات لها حدود، ولا سيما عندما تواجه الديمقراطيات التحديات اليومية بوضوح استراتيجي وأخلاقي. وقد كشف غزو روسيا غير الشرعي لأوكرانيا في شباط/فبراير 2022 [لمعظم دول] العالم عن مدى اختلاف نظرتها للعالم عن الغرب. ففي أقل من أسبوعين تحوّلت الحرب إلى أكبر صراع في أوروبا منذ الحرب العالمية الثانية وغيّرت العالم. ومع اندلاع هذه الحرب، يسعى بوتين للإطاحة بمنافس ديمقراطي تحت حكمه الاستبدادي، وتفكيك النظام العالمي الليبرالي القائم على القوانين الذي ساد ما بعد الحرب العالمية الثانية والذي يمقته. وتملك إسرائيل مصلحة مباشرة في الحفاظ على هذا النظام العالمي ولديها أيضاً الكثير من القواسم المشتركة مع أوكرانيا. ولا يمكنها البقاء على الحياد أو تصديق أكاذيب بوتين.

آنا بورشيفسكايا هي زميلة أقدم في "برنامج مؤسسة دايين وغيلفورد غليزر" التابع لمعهد واشنطن، حول "منافسة القوى العظمى والشرق الأوسط"، حيث تركز على سياسة روسيا تجاه الشرق الأوسط.